الفوضى

فتح (عمر) باب العمارة وخرج في هدوء.. ذاهبًا إلى عمله، ركب سيارته ثم تنهد تنهيدة قصيرة.. وهو يشاهد قطرات المطر على كل زجاج السيارة، وبالذات الأمامي منها.

قال في نفسه:

- العم (منعم) لم ينظِّف السيارة اليوم بسبب الأمطار.

فقد اجتاحت القاهرة الليلة الماضية موجة قوية من الأمطار استمرت لساعات.. وما زالتْ احتمالية هُطوله قائمةً؛ لذلك فضَّل العمّ (منعم) الانتظار.. هكذا قال لنفسه، وهو يحرِّك سيارته وينطلق، شاهد الشوارع مرتبكة أكثر وأكثر.. فتح المذياع على موسيقى هادئة لـ(عمر خيرت).. كم يُحب هذا الرجل.. يشعر أنه جاء بموسيقاه من درب آخر.. وكأنه سافر لمجرة مختلفة، ثم عاد وفي يده النُّوتة الخاصة بها.. نظر (عمر) أمامه فشاهد الارتباك في المرور.. تكدُّس السيارات على كوبري السادس من أكتوبر في طريقه إلى عمله بالقرية الذكية.. الكل يريد التحرك للأمام.. والازدحام شديد.. السيارات تتداخل مع بعضها البعض.. ذاك يريد

اليمين، وذاك يريد اليسار، أحدهم خرج بنصف جسده من النافذة وراح يصيح، وآخر يعلو منه بوق السيارة.. تنهد (عمر) تنهيدة صغيرة، وقال بصوت مسموعٍ:

- فوضى.

أجل.. فوضى أحدثها المطر.. فوضى يعلم بها الجميع، الكل كان على دراية بأغلب ما هم فيه الآن، منذ اتخذوا قرارًا بالخروج من منازلهم، فموجة الأمطار كانت شديدة، وهطولها باستمرار زاد الوضع سوءًا، ناهيك عن حالة مصارف المياة في الشوارع والطرقات، التي تجعل القاهرة تغرق ـ في شبرٍ من المياه ـ كما يرددون.. فشبكة التصريف على أسوء ما يكون، وكل ما يفعله المسئولون كل عام، التصريحات القوية المتوعِّدة للمقصرين بالعقاب والحساب، والتأكيد على تدارك هذه الأخطاءِ وتلافي حدوثها مرة أخرى.. ثم.. كما هو الحال كل عام.. الوعود تتبخر، ولا شيء يتغير حتى أسماء الموظفين والمسئولين الكبار، أما إذا حدثت كارثة، فكالعادة.. الموظفون الصغار هم كبش الفداء.. استيقظ (عمر) من حالة السرحان على هاتفه يرن.. تأمَّل المشهد أمامه من زجاج السيارة.. لم تتحرك أي سيارة من مكانها قيد أنملة.. أمسك الهاتف، وأجاب:

- ألو، أين أنت يا (عمر)؟
- في الطريق.
- كل هذا في الطريق؟!
- ماذا أفعل يا (فهمي)؟! المطر أغرق كل شيء، واستحالت معه حركة السيارات.

- لماذا لم تنزل مبكرًا؟ ألا تدرك أنَّ الاجتماع تبقَّى عليه نصف ساعة.. أين أنت بالضبط؟
- على كوبري السادس من أكتوبر.. والازدحام شديد.
- ماذا أفعل أو أقول أنا للعميل؟
- استقبِله، وأخبِره بظرفي، وأنا سأعتذر له حالما اصل.
- حسنًا.. حاول أنْ تنجز وتحضَر سريعًا.
- إن شاء الله.
- مع السلامة.
- في أمان الله.

وضع الهاتف في شاحن السيارة، وعاد للتنهد مرة أخرى، ولكن هذه المرة بغضب.. الاجتماع مع هذا العميل كان يحضِّر له من ثلاثة أشهر.. سوف تكون صفقة كبيرة له إذا ما أقنعه بالشراء.. وسيحصُل منها على علاوة كبيرة أو ترقية.. ولكن كيف سيكون كل هذا بمثل هذا التأخير؟!

حدَّث نفسه:

- فوضى، أدفع أنا ثمنها الآن.

ثم استوعب للحظة.. أنَّ الفوضى أساسها التغيير.. الأشياء تظل على حالها محتفظة بكيفيتها وروتينها حتى يطرأ عليها ما يَصْنَعُ فيها تغييرًا ملحوظًا.. وما أحدثه المطر تغييرًا كبيرًا ليس في وقته ومجريات يومه فحسب.. بل في حاضر ومستقبل كثير من الناس، قد تكون التغييرات إيجابية كمَن أنقذه هذا التأخير من حَدَث سيء أو أمرٍ ضار، وقد تكون سلبية، كالذي تأخَّر عن عمله اليوم وبسبب ذلك سيُطرد! وكالطبيب الذي تأخر عن مرضاه فكان الثمن من عافيتهم! والطالب الذي تأخر

عن مدرسته أو جامعته، ودفع ثمن هذا التأخير! فوضى أحدثت تغييرات وليس تغييرًا واحدًا، فوضى مزعجة بأحداثها وما ترتَّب عليها من نتائج من جهة.. غيْر أنها من زاويةٍ أخرى فوضى جميلة، يعترف بها الجميع، مَن مِنَّا لا يحب المطر؟

فجمال السماء وقت نزوله صَنع أساطير خرافية تحمِلها ذخاته كلما لامست الأرض، كأنه يأخذ مِنَّا الألم والوجع والهموم ويدفنها بعيدًا عنّا.. و يُخْرِجُ في ذاتِ الوَقتِ أحاسيسنا بعطره الفوَّاح الذي يملأ الأرجاء.. رائحته تلك التي تنادي خلايانا بالدفء والأمان.. تنهد (عمر) ثم ابتسم لما تذكرها.. طيف وجهها وعبير عطرها.. شعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها..وبريق عينيها المسافر في دمه..أليست (نيفين) كالمطر؟! المطر يُحْيِي الأرض والناس، وهي كذلك، أحيت قلبه، وأغرقته في عشقها.. تذكر أول نظرة.. لذة الطمأنينة والراحة.. الخجل في مُحيَّاها.. روحها التي صارت له قَصرًا، يتمتع فيه بكل سحر ودلال..كيف صَنَعَتْ له طقوسًا لم يعرِفها قبلها؟!.. فصار قلبه يرجف لذةً كلمَّا رَآهَا أو سْمِعهَا؟!.. تمامًا كالغارق تحت المطر..

- أجل، حبيبتي كالمطر.. أحدثتْ فيَّ فوضى جميلة.. فوضى الأحاسيس الفياضة.. بين الشوق واللهفة..أشبه بفوضى القطرات على جدران الزجاج والسيارات.. حمَلت قلبي لعالم جميل..البستنى فيه سحراً، فما عاد يَحيا إلا بها.

يدرك بأنها أكبر تغييرًا طرأ على حياته.. وبملء إرادته استسلم له واختاره، واكتفى به.

أمسك الهاتف مجددًا، ورفعه على أذنه، وطلب الرقم.. سمع صوت الجرس مرة، ثم في الثانية التالية أتاه صوتها:

- ألو.
- حبيبتي.. هل استيقظتِ؟
- منذ قليل.. كنت أمسك حالًا الهاتف لأطمئن عليك.. ولكنك كالعادة سبقتني بالاتصال.

ضحك قليلًا من كلامها، ثم قال:

- أنا بخير الحمد لله، لَكِنَّني لم أصل، فالمطر صنع ارتباكًا وازدحامًا غير معتاد.
- يا ربي.. وماذا عن الاجتماع؟
- (فهمي) سوف يستقبل العميل، حتى أذهب إليه بإذن الله.
- خير حبيبي، إن شاء الله ستنفرج الكربة، وتصل سريعًا.
- إنْ شاء الله.

ثم ساد الصمت لدقيقة بينهما، حتى سمعت صوته يناديها:

- (نيفين).
- نعم حبيبي.
- أحبكِ كما أحب المطر.. أحبكِ بعدد قطراته.
- وأنا أحبك كما الغيمات التي تأتي لنا بكل المطر.

ثم ضَحِكَتْ ضحكتها الساحرة التي جعلته يبتسم.. أغلق الهاتف، وعاد يتابع الطريق الذي ما زال ساكنًا.. تابعه بهدوء وفرح.. فمهما كان.. هذا صنيع الفوضى.. صنيع الحب والمطر.